التطوّر الحضَاري
في مصَبّ أبي رقراق.

عبدالعزيز بنعبدالله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت منطقة أبي رقراق مندرجة ضمن الحدود الرومانية (Limes) التي تمتد جنوبي المدينة في مسافة اثنين وعشرين كياو متر ولعل (Sala Romana) قد تجاوزت حظيرة شالة من الجهات الأربع حيث عثر على قبور رومانية قرب المحيط على نحو مائتي متر من خط السكة الحديدية القديم الذي كان يصل الميناء بالبرج المقام قرب الشاطىء وقد تم الكشف عن نقود رومانية في رمال المسبح القديم بالرباط وهو ملاصق لسفليات مقبرة لعلو وقصبة الاوداية ، وهذا يفسر لنا لماذا اعتبر الجغرافي (بطليموس) قاعدة شالة من بين المراكز الرومانية

بساحل الاطلنطيك ، ويذهب بعض المؤرخين الى توهم وجود مدينة رومانية عتيقة بهذه الانقاض كانت تسمى
(Oppidum Novum)
أى المدينة الحديثة (حديثة بالنسبة لشالة) وان كان البعض يرى أنها هى القصر الكبير (1) .

ويظهر من نتائج بعض الحفريات أن شالة كانت مركزا قرطجيا نظرا للعثور على نقود تحمل كتابات بونيقية حديثة تدل على أن هذه العملة قد سكت بهذه المدينة أواخر القرن الاول قبل الميلاد وليس ذلك ببدع ما دامت مدينة (ليكسوس Liscus) البونيقية قد بنيت قبل ذلك على بعد أميال من العرائش الحالية (عام 1101 قبل الميلاد) .

وقد تأكد أن أرباض الرباط غنية بالآثار العادية حيث سبق التنقيب فى مغارة (دار السلطان) على مسافة ستة كيلو مترات بشاطىء البحر فى طريق تمارة وأسفر الحفر عن أدوات وآلات تشهد بعمران هذه المنطقة فى حقب غابرة من عهود ما قبل التاريخ وقد عثر فى (منجم القبيبات) منذ 1933 على بقايا جمجمة انسان تؤكد هذا العمران ، وكانت الغابات

(1) وصف وتاريخ المغرب ، كودار ج 1 ص 70 (راجع بحثنا حول القصر الكبير فى مجلة « المناهل » .

بين ضفتى الوادى آنذاك أكثر كثافة منها اليوم وهو ما لوحظ بالنسبة لباقى الغابات أو البحائر والبرك (كالجبل الاخضر) بل بالنسبة لمجموع المغرب العربى حيث لاحظ ابن خلدون تكاثف الاشجار فى ظلال وارفة من ليبيا الى طنجة ، وقد بدأ التاريخ الاسلامى لمنطقة أبى رقراق مع الفاتح الاكبر المولى ادريس ، اذ ما كاد الامر يستتب له فى (وليلى) قرب (قصر فرعون) حتى استولى على تامسنا وعاصمتها شالة (2) .

وقد لاحظ ابن حوقل فى القرن الثالث وجود رباط على (وادى سلا) كان يتجمع فيه نحو مائة ألف من المسلمين يرابطون للجهاد ضد البرغواطيين وكان بالجانب الشمالى للوادى مدينة سلا عاصمة بنى يفرن الذين كانوا يمارسون نفس الحركة الجهادية على غرار بنى زيرى والاندلسيين ، ولعل فى كلام ابن حوقل ما يوهم وجود رباطين اثنين متميزين احدهما على الوادى قريبا من البحر والآخر بجانب أنقاض شالة وقد يكون أحدهما رباط عبادة والآخر رباط جهاد حسب ابن خلدون (3) . وكان لبرغواطة أثر فعال فى بلورة تاريخ

(2) (روض القرطاس) ـ طبعة وترجمة بوميي (Beaumier) باريس 1860 ص 16

(3) المقدمة ـ ترجمة دوسلان ـ القسم الاول ـ باريس 1863 ص 13.

مركز مدينة الرباط طوال عدة قرون حيث كانت (شالة) هى عاصمة منطقة (تامسنا) التى كانت تمتد قديما من نهر أبى رقراق الى نهر أم الربيع وان كانت حدودها قد تقلصت بعد ذلك لتقتصر على منطقة الشاوية وقد سمى ابن حوقل نهر أبى رقراق بوادى سلا (المسالك ص 56) وسماه البكرى وادى وانسيفن والادريسى (النزهة المختصرة ص 7) وكذلك الفزارى وادى أسمير والمراكشى وادى الرمان (المعجب ص 358) وابن عذارى بحر سلا (البيان ج 1 ص 26) ومنذ القرن العاشر الهجرى تمخضت التسمية الحالية عند الحسن بن محمد الوزان وهو ليون الافريقى ، وقد ظل عبد المومن بن على مرابطا على ضفاف أبى رقراق منذ عام 550 هـ/1155 م طوال سنتين مراقبا حركات المجاهدين فى الاندلس وبعد ذلك بأقل من عقد من السنين (558 هـ / 1163 م) حشد الخليفة فى ضاحيتى الوادى جيشا بلغ أربعمائة وثمانين ألف رجل امتد معسكره من (عين غبولة) الى (عين خميس) والمعمورة على أن عبد المومن قد توفى فى شهر جمادى من نفس السنة برباطه هذا من حيث نقل جثمانه الى تينمل (4) الا أن الافكار كانت متجهة الى احالة هذا المحيم الجهادى الى حاضرة لاسيما

(4) القرطاس ص 286 / ابن خلدون م. 2 ص 195 / ابن الاثير ص 595

وأن وجود مصب نهر ابى رقراق كان من العوامل الباعثة على تأسيس مدينة جديدة وهذا هو ما حدا المؤرخ الاندلسى محمداً بن ابراهيم بن يحيى الانصارى القرطبى المعروف بالوطواط (718 هـ 1318 م) (5) الى نسبة بناء الرباط الى عبد المومن .

غير أن المؤرخين (6) يكادون يجمعون على أن مدينة الرباط هى من بناء أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى حيث فكر فى الشروع خلال مروره بأبى رقراق عام 592 هـ /1195م للجواز الى الاندلس من أجل خوض غمار معركة (الارك) الظافرة التى انطلقت بعدها عملية التشييد والتعمير تمت فى أقل من أربع سنوات ويحلو للمؤرخين المشارقة أو المغاربة المستشرقين كالمراكشى وابن بطوطة أن يوازنوا فى هذه المناسبات بين الحاضرة الجديدة وبين بعض حواضر الشرق فيقولون انها شبيهة بالاسكندرية كما قال ابن خلكان والزبيدى بالنسبة للرباط وغيره فى خصوص فاس المشبهة بدمشق ومراكش ببغداد ويزيدنا صاحب (المعجب) (7) تدقيقا عندما

(5) فى كتابه « مناهج الفكر ومباهج العبر » .
(6) تاج العروس ج 5 ص 142 / ابن خلكان ج 4 ص 341 .
(7) ص 230

لاحظ أن الخليفة هو الذى رسم بنفسه تصميم المدينة وضبط حدودها الى تبلورت بعد عامين فى أسوار ذات أبواب (8) وقد ورد ضمن الرسائل الموحدية السبع والثلاثين التى نشرها ليفى بروفنصال عام 1941 والتى تتراوح وقائعها بين سنتى 543 هـ و 603 هـ ـ ثلاث أرخت من رباط الفتح فى عامى 551 هـ و 557 هـ فهل قصبة الاودايا حملت اسم (رباط الفتح) قبل تأسيس مدينة المنصور ؟

ويرى (ابن صاحب الصلاة) أن ربض القصبة أو المهدية كان يسمى (رباط الفتح) فى عهد عبد المومن بن على (9). ويؤكد صاحب (الاستبصار) (ص 53) الذى عاصر المنصور أن يوسف أبا يعقوب هو الذى كان قد أعطى الامر ببناء (الرباط) ولهذه الشهادة وزنها لان كتاب (الاستبصار) ألف قبل البناء الفعلى بنحو ست سنوات عام 587 هـ / 1191 م ولا شك أن وجود القصبة فى مرتفع مشرف على الوادى والبحر كان من الحوافز الفعالة على استغلال البسيط الشاسع وقد وجد الخليفة الميدان فسيحا فاقتطع لهذا الغرض 418 هكتار

---

(8) روض القرطاس ص 386 .
(9) المن بالامامة ص 190 .

تبلورت فى معالمهـا عظمة هيكل المدينة فى ضخامة أسوارهـا وأبراجها ونسق عمرانها وسعة جنانها وعرصاتهـا التى امتدت الى مشارف شالة المرينية وقد رسم مجالى هذه الروعة صاحب الاستبصار وعبد الواحد المراكشى والحسن الوزان وابن خلكان ومارمول والقنصل الفرنسى Chénier وهكذا جهزت المدينة منذ الانطلاقة الاولى بالأزقة الرحبة والمبانى الوطيدة والاحياء الحسنة التوزيع والمساجد والقصور الفخمة مع سوق كبرى مغطاة وحمامات وفنادق ودكاكين و « سبالات » للماء بل مد ـ حسب المراكشى ـ جسر بين العدوتين فوق نهر أبى رقراق وما لبثت المدينة أن عمرت بأصناف من رجال الحرف وشتى الحيثيات كما أراد لها المنصور الذى عزز قنوات معلقة نقلت مياه (عين غبولة) منذ عهد الخليفة عبد المومن .

ولعل اقامة جسر يصل (رباط الفتح) بسلا كان من أبرز التجديدات التى عززت وحدة الحاضرتين وسهلت المبادلات بين الشمال والجنوب وقد أشار المراكشى (ص 156) الى ما أمتاز به العهد المنصورى من « كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معايش » مؤكدا أن أهل المغرب لم يروا قط أياما مثلها .

وكانت القنطرة عبارة عن معديات أى مراكب عددها ثلاثة وعشرون مترابطة بعوارض قد بلطت بأرضيات من خشب لا تنال منها حوافر الدواب التى بلغ عدد جمالها وبغالها أحيانا ألفا فى كل يوم واذا صدقنا ما قاله الحسن الوزان (10) فان المنصور اتخذ من المدينة الجديدة مصطافا يقيم فيه ستة أشهر فى السنة من أبريل الى شتنبر .

ولكن بالرغم من امتداد الاسوار فان التخطيط الاول للمدينة لم يتجاوز تصميمها الحالى الذى يحده شرقا السور الاندلسى الجديد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد أصبح مصب أبى رقراق ـ خاصة بعد اقامة مدينة (رباط الفتح) بجانب سلا ـ عقدة المواصلات بين الشمال والجنوب والمركز الحساس فى طريق قوافل المجاهدين لذلك حاول محمد بن يوسف بن هود الاستيلاء عليه عام 635 هـ / 1237 م بعد أن تمرد ضد الموحدين وسطا على معظم أقاليم الأندلس .

---

(10) ج 2 ص 21 .

وباستفحال، خطر الزحف الزنلتى المرينى على المغرب من الصحراء الشرقية تزايد الشعور باستراتيجية موقع العدوتين الذى كانت قيادته تسند فى الفترات العصيبة الى الامراء أنفسهم مثل عمر المرتضى أخ الخليفة السعيد عام 643 هـ / 1245 م الا أن الأزمات السياسية كانت تطغى أحيانا فتتلص من أهمية بعض المراكز ولذلك تراءى للاستاذ (كابيى) أن رباط الفتح ظل شبه مهجور منذ منتصف القرن الثالث عشر (أى منتصف السابع الهجرى) الى أوائل القرن السابع عشر (أى حوالى منتصف الحادى عشر الهجرى) حيث أسست آخر المطاف مدينة جديدة سميت على ما يلوح (سلا الحديثة) ، ولعل الادريسى أول من تكلم عن « سلا الحديثة » الا أننا لا نعرف بالضبط هل كان يقصد مدينة (سلا) التى هى حديثة بالنسبة لشالة أو يقصد الرباط ؟ والذين سايروا الرأى الاخير يستدلون بأن (نزهة) الادريسى صنفت فى آخر النصف الثانى من القرن السادس الهجرى وهو تاريخ بناء (رباط الفتح) الا أن مؤرخين آخرين يرون الرأى المعاكس نظرا لوجود التنظير عند مؤرخين آخرين كابن خلدون (ج 2 ص 80) الذى ذكر كلا من شالة وسلا فى عرضه لتقسيم المغرب بين أبناء المولى ادريس الثانى بعد عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

213 هـ / 828 م والغريب أن ابن خلدون لم يشر الى مدينة سلا عندما تطرق الى فتوحات المولى ادريس الاول بعد عام 172 هـ / 788 م ومع ذلك فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن سلا يمكن أن تكون قد أسست من طرف المولى ادريس الاكبر أو ابنه .

كما أن ابن حوقل نفسه ـ وهو من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ـ لم يشر الى مدينة سلا على أنه عثر على نقود سكها الادارسة تحمل أسماء مدن ادريسية عدا مدينة سلا ومع ذلك فالظاهر ـ كما يبدو من كلام ابن خلدون ـ ان مدينة سلا كانت موجودة فى هذا العصر ـ . وهذه البلبلة التى أثارها كايبى (11) حول الادارسة قد بدأت بالتشكيك فى القر الحقيقى لضريح المولى ادريس بفاس وما لبثت أن عقبتها محاولات أخرى حيث زعم كايبى (12) أن ما كتب حول الادارسة لحد الآن غلط وانهم شيعيون وهو وهم خطير لأنه يواكب سياسة الحماية التى كانت تستهدف الفصل بين دولة الملوك العلويين ودولة الادارسة السنيين

(11) « تاريخ الرباط » ص 42 .
(12) « تاريخ الرباط » ص 37 .

وهما دولتان علويتان تتصلان فى وحدة تاريخية تمتد أزيد من ألف سنة وقد كان المولى ادريس الاكبر سنى العقيدة مالكى المذهب اختار لخطة القضاء أحد تلامذة الامام مالك وهو الفقيه محمد القيسى ولكن هنا يجب أن نتساءل لماذا سمى ابن حوقل (13) نهر أبى رقراق بوادى سلا ؟ فهل يقصد شالة التى « يحف بها الرباط » حسب تعبيره ؟ ذلك ما يفهم من مقارنة عناصر هذا النص .

ولعل صاحب الاستبصار (وهو شخص مجهول ربما كان من رفقاء المنصور الموحدى فى « غزوة الأرك » وأثناء بناء (رباط الفتح) قد خلط بين شقى أبى رقراق عندما تحدث بما يوهم أن سلا قد بنيت فى القرن السادس لأن وجودها كعاصمة يفرنية يرجع الى ما قبل هذا التاريخ .

أما السور الموحدى الذى أسسه يعقوب المنصور بالرباط فقد تم بناؤه ـ على ما يلوح ـ حوالى عام 593 هـ ـ 1197 م وهو يمتد على طول 5263 مترا غربى وجنوبى المدينة التى تحميها من الجهتين الشمالية والشرقية قصبة

(13) (المسالك والممالك) ص 56 .

الاودایة ونهر ابی رقراق والمحیط الاطلنطیقی فی مساحـــة ینفذ الناس الیها من أربعة أبواب هی غربـــا باب العلو وباب الرواح وأخـــری داخل الثـــکنـــة العسکریـــة المحاذیة للقصر الملکی ، وجنوبا باب زعیر المؤدیة الی شالة .

ومازال السور ــ رغم مرور نحو من ثمانیة قـــرون علی تأسیسه ــ قوی الدعائم عدا قمته التی تفتتت عناصرها وهو مبنی من الملاط المقوی (béton armé) الذی یحوی الثلث من الکلس بینما لا تتعدی نسبة الجیر عـــادة السدس أو الثمن ، ومعلوم أن الملاط الموحدی هو اقـــوی الملاطات اذ یشتمل فی بعض المواضع علی آجر مدکـــوك فی شکل « طابیـــة » وعلی حصیات صغیرة قد لف بعضها ببعض فأصبحت کالحجارة فی صلابتها لا ینال منها المعول الا قلیلا ، وقد غالبت أســافـــل السور جوارف المطر ، اما عرض السور فیبلغ أحیانـــا مترین اثنین ونصف متر قد عبدت فوقها طریـــق مشرفـــة للحراسة یدعمها حاجز منیع یقل ارتفاعه عن المتر الواحد فی حین یصل علو السور الی أزید من عشرة أمتار ، ویمکن أن نلاحظ الیوم وجود أربعة وسبعین برجا سبعة منها تمتد من بـــرج الصراط فی الطرف الغربی الی باب العلو وتسعة الی باب الحد وخمسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعشرون الى باب الرواح وسبعة على طول ثكنة الحرس الملكى وأربعة وعشرون الى الجهة المارة من باب زعير والمطلة على أبى رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه (وهو مقر السفارة الفرنسية الآن) .

وباب الرواح هى أعظم أبواب السور الموحدى وأكثرها تنميقا ، يبلغ عرضها 28 م وعمقها 26ر93 م وارتفاعها 12 م وتحتوى على أربع قاعات احداها مكشوفة كلها مربعة الشكل (5ر65 م فى مثلها) وعلى ممرين (مساحتهما 4ر20 م فى 2ر20 م) وتعلو القاعة الاولى قبة ذات اضلاع مشعة (الطراز القوطى) (14) عقودها الركنية من الآجر ، لها ستة عشر اخدودا تتجمع فى قبيبة ذات ثمانية فصوص (أى قويسات أو أقواس صغرى) ونعثر على هذا النموذج من القباب فى عدة غرف بمنارتى (الكتبية) و (حسان) الا أن قبة باب الرواح أضخم وان كانت أقل جمالا ورواء فى حين تمتاز بسمة خاصة هى ان قاعدة كل عقد ركنى تدعمها سويرية متوجة ومحلاة بما يسمى بالاقنثا أو شوكة اليهودى (acanthe)

---

(14) الزخرف المشع اصله اغريقي يمتاز بتشكيلات زخرفية كثيرة ووردات متفتحة متعددة الفصوص .

وهى نبتة اتخذت أوراقها مثالا للزينة فى الابنية القديمة واختص بها تقريبا الطراز الكورنثى اليونانى وتصطبغ هذه المجموعة الرائعة بالرشاقة والخفة ضمن الهيكل الضخم المتشكل فى الحنايا والاقواس ، ولاشك ان بعض القاعات كانت مخازن أو مخابىء لاستخدام الحرس العسكرى ، وقد جدد السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى كثيرا من المظاهر الاثرية فى هذا الباب (15) بل أضاف عناصر طريفة كقوس الانفتاح المكسورة والمشرعة وهى عبارة عن حنية أو عقد قبة يعلو سهمها أو مفتاحها الى نصف مستوى الانفتاح) ، ويحيط شريط من الخط الكوفى باللوحة المركزية المأطورة للباب فى وضوح وروعة وتجانس بين المجموع والجزئيات (وهو شبيه بمثليه فى باب القصبة وباب كناوة بمراكش) وتقل الرسوم الزهرية فى النقوش حيث لا تعدو بعض الاشكال السعفية كما تقل التنميقات فى الوجه الباطنى للباب طبقا للتقاليد المعمارية المتبعة التى تأبى الا أن تحلى الجدران بكتابات منحوتة على الحجر وصور سيوف دقيقة وقاذوف (أى آلة لرمى السهام الى مسافات بعيدة كالتى توجد فى باب العلو) وحسام قصير ذى نصل معقوف .

(15) تاريخ الضعيف ص 165 (مخطوط المكتبة العامة) .

أما جامع حسان فقد بدأه المنصور عام 592 هـ / 1195م دون أن يتم بناؤه ومنارته أقرب عهدا من منارتى جامع الكتبية وجامع اشبيلية (المعروفة بالخالدة (Géralda) وهى مربعة يبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعمارى وهذا العلو وهو أربعة وستون مترا يجعل منها أعظم منارة فى الغرب بل حتى فى الشرق ، ويقع جامع حسان شمالى شرق مدينة الرباط على نحو ثلاثين مترا فوق البحر وهو المسجد الثانى الذى بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق .

ويعتبر جامع حسان من المآثر التى حققت وحدة الفن الشرقى والفن الاندلسى المغربى فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية ومشاعرها فى السمو والعظمة وذوقها فى التناسق الجامع بين الفخفخة والبساطة .

* * *

وقد خضعت العدوتان لأبى يحيى بن عبد الحق المرينى منذ 647 هـ / 1249 م ولكن سلا والرباط ظلتا فى الحقيقة متأرجحتين بين الفريقين بضع سنوات الى أن سطا عليها الامير يعقوب بن عبد الله المرينى حوالى 650 هـ / 1252 م

حيث فـــر الوالى الموحدى فأفلت الزمام نهائيا من يـــد بنى عبد المومن فى مصب أبى رقراق .

وكان الخليفة الرشيد قد أصدر ظهيرا باسكان المهاجرين من أهل بلنسية وجزيرة شقـــر وشاطبـــة وغيرهم من بـــلاد الشرق فى مدينة رباط الفتح (16) .

غير أن المرينيين ما لبثوا أن واجهوا فى المنطقة محنـــة كبرى عام 659 هـ / 1260 م عندمـــا بعـــث ملـــك قشتـــالة (الفونس الحكيم) سرية استولت على مدينة سلا فى بحبوحة عيد الفطر فقتلت الرجـــال وسبت النســـاء والاطفـــال وهب السلطان أبو يوسف من تازة لفك الحصار الذى استمر أربعة عشر يوما تحصن خلالها والى العدوتين يعقـــوب بن عبد الله فى (رباط الفتح) فجلا الاسبان بعد أن نقلوا معهم أسراهم مـــن الســـلاويـــين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(16)من انشاء كاتبه ابى المطرف بن عميرة المخزومي فيه توصية للولاة بحمايتهم وهو مؤرخ بـ 21 شعبان 637 هـ / 1239 م (« زواهـــر الفكر » ــ مخطوط الاسكوريال 520 ــ (الغزيري لوحة 115 و 116) نقلها عبد الله عنان فى « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والانـــدلس » (ص 737)

وقد أخذ يعقوب بن عبد الحق المرينى فى سلا البيعة لولده يوسف عام 671 هـ / 1272 م فأنشد عبد العزيز الملزوزى شاعر البلاط قصيدته العصماء التى مطلعها :

يا ظبية الوعساء قد برح الخفا انى صبرت على فراقك ماكفى

وقد وصف سلا ونهر أبى رقراق فقال :

لله درك يا سلا من بلدة
من لم يعاين مثل حسنك ما اشتفى

قد حزت براثم بحرا طاميا
وبذاك زدت ملاحة وتزخرفا

فاذا رأيت بها القطائع خلتها
طيرا يحوم على الورود مرفرفا

وظل ملوك بنى مرين على عادة سلفهم الموحدين يقضون شهورا فى رحاب (رباط الفتح) لتجهيز جيش الجهاد فى الاندلس كما فعل أبو يوسف أيام خلافته فكان يقتبل بالرباط وفود شيوخ المغرب وقد توفيت زوجته أم العز فدفنت بشالة عام 683 هـ / 1284 م حيث أقام زوجها مسجدا كان هو ثانى

من دفن به بعد أن توفى بالجزيرة الخضراء وكان من آخـــر انجازاته بناء (دار الصناعة) فى (باب المريسة) بسلا ثـم توالى دفن ملوك بنى مرين فى (روضة شالة) حيث أقبر كل من أبى يعقوب وأبى ثابت وكذلك عثمان بن يعقوب (731 هـ) وعامر بن عثمان (752 هـ) .

واستمر الرباط معسكرا للجهاد فى عهد أبى سعيد الذى كان أول من قام بـبناء اسطول حربى فى دار الصناعة بمدينة سلا التى حظيت بعناية كل من أبى الحسن المرينى (مؤسس المدرسة قرب الجامع) وولده أبى عنان وقد حظيت شالة بأول سور أحاط بالمبانى المرينية داخل الحاضرة الرومانية .

واذا كان تاريخ العدوتين قد ارتبط بفـورة الجهـاد فى الاندلس فان هزيمة المرينيين فى (طريفة) سيقلص من أهمية المنطقة التى ظلت تعتبر حتى فى عهد الوطاسيين العقدة التى يقبض ماسكها على مجموع مملكة فاس وذلك بالرغم عـــن تضاؤل عدد سكانها ، ومعـلوم أن الجامع الكبير والمارستان قبالته و (حمام الدورة) من منجزات بنى مرين فى القـــرن الثامن الهجرى .

* * *

وخلال فترة عقبت معركة وادى المخـازن ومـا أسفرت عنه من تجديد فى المعالم الحضارية بالمغرب تـوفى المنصـور السعدى فأدى خلاف أبنائه الثلاثة الى انقسام المغـرب الى مملكتين (مملكة فاس ومملكة مراكش) وظهور المجاهد العياشى فى الغرب (حيث ناضل ضد الوجود الاسبانى فى العرائـش والمعمورة) والدلائيين فى الاطلس الاوسط وقد أصبـح محمد الحاج الدلائى أمير العدوتين بعد استشهاد العياشى وواكـب استقراره فى (رباط الفتح) انبـثـاق حركـة القراصنة فى المتوسط والمحيط انطلاقا من مصب أبى رقراق وكانت فـورة عارمة من كل طبقات الشعب ضد دول مسيحية حاولت غـزو المغرب تحقيقا لمطامعها وانصبت أطماع الانجليز والاسبـان خاصة على قصبة الرباط ولكن وصول اللاجئين الاندلسيـين وما نتج عنه من تطور القرصنة اقتصاصا من مواقف الاسبان ازاء المهاجرين ـ قد غير الوضع فى المنطقة فكان أول فوج وصل الى الرباط هم سكان مدينة (هورناشيروس) فى اقليـم (استرامادور (Estramadure) من المسلمين الاقحاح الذين فروا بدينهم وكانوا من أثرياء (الموريسك) الذين اشتروا من ملك

---

(17) كاييـي ـ تاريـخ الرباط ص 183 .

اسبانيا (فيليب الثالث) حق حمل السلاح وكان طردهم بمقتضى المرسوم الملكى الاسبانى المؤرخ بثالث دجنبر 1609 وواكب وصولهم الى ضفاف وادى الرمان أوائل عام 1610 م / 1019 هـ حيث رحب بهم قائد المولى زيدان آملا أن يسهموا فى اثراء الاقليم بما حملوه من أموال وفى الدفاع عن الاقليم بما يذكيهم من روح عسكرية وثابة لاسيما ازاء الاسبان الذين لم يكتفوا باحتلال الاندلس بل استهدفوا فتح جيوب فى شواطىء المغرب على أن الامير السعدى ما لبث أن شكل منهم فيلقا من أربعمائة جندى لتعزيز حركاته فى الجنوب وحماية العدوتين ، ودعما للدفاع عن المنطقة قام الاندلسيون بترميم الاسوار وتعزيز الابراج وفتح منافذ لبطاريات المدافع فى القصبة التى نقل زيدان اليها مختلف أفواج (الموريسك) المنبثة فى بعض أقاليم المغرب . . محاولا تقوية مركزها الاقتصادى بالتنازل لها عن رسوم (ديوانة الميناء) .

غير أن ضعف الدولة والروح الانفصالية التى تذكى الفئات الاندلسية قد أدى كل منهما الى تشكيل ديوان أو مجلس ادارة من ستة عشر عضوا لمساعدة وال أو قائد منتخب للعدوة الجنوبية واستغل هذا الديوان الوضع

المضطرب فى المغرب لتعزيز استقلاله عن الدولة التى تفككت أوصالها تحت ضربات المغير الاجنبى حقبة من الزمن سوف تتبدد غيومها وتنقشع ظلماتها بظهور الدولة العلوية التى أعادت الوحدة الى البلاد وحررت جيوبا استهدف العدو الانطلاق منها لاحتلال المغرب ، وهذا الاقليم الديوانى الجديد قد أطلق عليه الاجانب اسم « جمهورية » وهو مصطلح غربى دخيل لم تتعرف اليه جماعات الاطلس والجنوب ولا جماعة الاندلسيين هذه التى لم يزد عملها على تكوين مجالس بعضها منتخب لتسيير دولاب الحياة لصالح الفئات المتساكنة وان كانت هذه الفئات أو الجماعات قد تحررت أحيانا من نفوذ الدولة بسبب ما لحق هذه من ضعف واضطراب.

وقد جرب الاندلسيون هذه الحياة الانفصالية وذاقوا مرارة ما جرته عليهم من ويلات عقودا من السنين ظلت العدوتان خلالها فى تصارع حال دون أى تطور اقتصادى وحضارى قار وقد استغل أهل الدلاء وخضر غيلان هذا الوضع الشاذ لاذكاء نار الشقاق والتطاحن التي استمر أتونها فى مرحلة أولى خلال خمس عشرة سنة (من عام 1037 هـ / 1627 م الى 1051 هـ / 1641 م) واذا كان المغرب قد عرف جهويا مثل هذه الاشتباكات حتى بين الاخوة من فخذات القبيلة الواحدة ـ فان

عنف واستمرار القتال بين الفئات الاندلسية بالعدوتين كان له طابع آخر وسمته بميسمها الناخر الحاز تلك الخلافات المزمنة التى عرفتها الاندلس منـذ العصر الاموى وضاعفها تصـادم مصالح جديدة والواقع أن أندلسيى (رباط الفتح) حرموا من كل ما كان يتمتع به (الهورناشيروس) المحصنون فى القصبة بتأييد كل من المجاهد العياشى وسكان سلا الذين ظلوا يمدون القصبة المحاصرة بحرا ومع ذلك استطاع (انداسيو الرباط) عام 1040 هـ / 1630 م كفالة بعض مطالبهم فأصبح لهـم الحق فى انتخاب قائد منهم يسكن بالقصبة نفسهـا وتعيـين نصف أعضاء الديوان والتمتع بنصف ريع جمرك المرسى وهنا انتخب الفريقان شخصيتين بارزتين فى منصب القيادة كـان لهما دور فعال فى تاريخ العدوتين وهما محمد بن عبد القـادر سيرون عن القصبة وعبد الله بن على القصرى عن الاندلسيين غير أن الفريق الثالث فى سلا خشى مغبـة هذه الوحـدة التى زادهم تخويفا منها رجل كانوا يخلصون لـه وهـو المجـاهد العياشى ولعل هذا الخوف كان فى محله لأن كل فئة كانت تضمر الشر للاخرى وكان العياشى يشك فى اسلام سكان الرباط من الاندلسيين بل يتهمهـم بالتواطـؤ مـع الاسبـان فى المهديـة والعرائش لاسيما بعدما رفضوا تزويده بالمدافع والمال ويظهر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ حسب الافرانى ـ ان المجاهد العياشى حصل من بعض العلماء على فتوى تسمح بمحاربة من كفر بالله ورسوله والواقع أنها فتوى لا يتأخر أى مسلم عن التصديق عليها اذا صحت لوازمها ولكن الى أى حد كانت تنطبق على سكان الرباط ؟ وعلى كل فان العياشى حاصر الرباط فى السنة التالية (18) بدعوى حمل الفريقين على الانضمام الى حظيرة الجماعة أى الخضوع للسلطان السعدى فانطلقت من سلا أربع بطاريات تقنبل القصبة وصوب مدفع خامس فوهة ناره الى المصب وهجم ابن للعياشى فى خمسة آلاف فارس كانت تخيم فى شالة ولكن القصبة كانت تتلقى المدد من البحر وانبرت الطائفتان المتقاتلتان تبرران موقفهما أمام السلطان الشرعى وهو الوليد السعدى الذى اهتبل هذه السانحة فبسط نفوذه على كل من الاندلسيين والهورناشيروس فاضطر العياشى لرفع الحصار والانسحاب الى ناحية الغرب .

وهكذا يتجلى من هذه الصورة المكبرة أن النزاع لم يكن قائما بين سلا والرباط فقط بل بين سكان الرباط أنفسهم وان الاسباب كانت تافهة وهى تنازع المصالح أحيانا وتنازع

(18) حسب رحلة لمؤلف مجهول اشار اليها (كايي) ص 217 .

السلطة غالبا على أن أندلسيى (رباط الفتح) لـم يكن يهمهم السلاويون بقدر ما يهمهم بلد يوهم من (الموريسك) المحصنين فى القصبة ولذلك ظلت المناوشات بين الفئتين الرباطيتين موصولة كللت عام 1046 هـ / 1636 م بانتصار موقت أسفر عن تشتيت (الهورناشيروس) الذين انحاز بعضهم الى العياشى وفر آخرون الى الجزائر وانضمت شتات منهم الى سكان الرباط وأصبح القصرى قائدا وحيدا على شقى المدينة الا أنه طمع فى أكثر من ذلك فأقام قنطرة من المراكب لنقل عتاده الى سلا لمحاصرتها فاستنجدت هذه بالعياشى ويظهر مما كتبه الاميرال الانجليزى رينسبوروغ (Rainsborough) فى يوميته (من 3 مارس الى 23 اكتوبر 1637) وكان قد وصل آنذاك بأسطوله الى مصب أبى رقراق لتحرير أسارى انجليز ــ ان المجاهد العياشى حصل على مساندته فقصفت مدافع الملك (شارل الاول) الجسر العابر الذى أدى تحطيمه الى انسحاب القصرى الى مربطه فى الضفة اليسرى للنهر (19) ولم يقف الامر عند هذا الحد لأن الصراع المفتعل بين العدوتين أمسى قضية حياة أو موت لاسيما وان تدخل

(19) رحلة جان ماج (Jean Mages) (ص 539) .

الانجليز أصبح عنصرا جديدا لم يتنبه الى خطورته حيث طفق يؤجج نار الخلاف ويذكى عوامل التناحر بين الجانبين وكان لانجلترا آنذاك مطمع فى الاستيلاء على القصبة بدعوى قطع دابر القرصنة من معقلها الا أنها كانت تستهدف فى الحقيقة تركيز مبادلاتها التجارية بوضع اليد على مراكز فى الشاطىء المغربى للمحيط وكانت انجلترا تحسب أنها بمساندة العياشى تضرب عصفورين بحجر فتحصل على عطف المجاهد الكبير وتضعف نفوذ الدولة فى شخص الشريف محمد الشيخ الصغير فلذلك عززت بأسطولها حصار القصبة التى هب السلطان لنجدتها فتواطأ العياشى مع سيدى محمد الحاج الدلائى لعرقلة زحف الجيش السلطانى بترويج شائعات حول هجوم موهوم على عاصمة الحمراء ، وتمخض الحصار الموصول عن عزل القائد القصرى وتعيين قيادة من ثلاثة منتخبين أدت الى قيام ثلاثة أحزاب متناقضة فى هذا المجال الضيق من شاطىء الوادى وكانت انجلترا قد وضعت تاجرا هو روبير بليك (Robert Blacke) بجانب السلطان بمراكش حيث حظى بعطفه فصارت هى بذلك تلعب على الحبلين فى مسرحية نقل القصرى خلالها مكبلا فى القيود الى السلطان الذى أرجعه الى منصبه وأدى تناجى الدخيلين الانجليزيين الى رفع الحصار واغتيال

القصرى واقامة السلطان لحاميته بأمرة القائد مراد وهو علج فرنسى وعـودة (الهورناشيروس) وانسحاب العياشى الى أرباض المهدية لمحاصرتها واستمر المجاهد الكبـير مع ذلك فى بث الشقاق بين سكان الرباط فقامت الحرب من جديد واستنجد الاندلسيون بالدلائيين وتمخض الالتحـام عن قتـل الخلـط للمجاهـد العيـاشى عـام 1051 هـ / 1641 م وانصـاعت المستوطنات الثلاث الى سيدى محمد الحاج برياسة ممثـل عنه هو قائد سلا السيد الحاج الجنـوى (20) وظـل سكان القصبة بالرغم عن ذلك يراسلون بكيفية شخصية « الولايات العامة » فى لاهاى Etats - Généraux La Haye مما أحنـق الزعيم الدلائى الذى أسر الى الهورناشيروس بمحاصرة الاندلسيين فى القصبة عام 1054 هـ / 1644 م وطردهم منها وتعيين ولـده عبد الله قائدا أعلى للمنطقة وكان يدعى (أمير سلا) يخلفه الجنوى المذكور فى قيادته التى استمرت الى عام 1071 هـ / 1660 وهو التاريخ الذى ثارت العدوتان معاضد الدلائيـين الذين انهزموا شر هزيمة رغم هبوب ثمانين ألف جندى مـن رجالهم بفضل تحالف خضر غيلان وعبد القادر سيرون واستمر الصراع ست سنوات عين أثناءها القائد عبد القادر مرينو على

(20) حسب شهادة تجار سلاويين (راجع كايي ص 221) .

رأس الرباط وقصبته والقائد الحاج محمد فنيش على سلا تحت حماية الخضر غيلان الذى ما لبث السلطان مولاى الرشيد أن نحاه واستولى على المنطقة عنوة دون اراقة قطرة دم ولا اطلاق رصاصة واحدة لأن الشعب الذى طفق طوال مدة الصراع الضحية الوحيدة ـ مل وكل فانصاع الى ممثل السلطة العلوية الفتية وانصاع معه زعماؤه فدخلت العدوتان فى مرحلة هادئة بعد اضطرابات عارمة تواصلت ويلاتها أزيد من نصف قرن .

وكان قواد القصبة أو (رباط الفتح) كمفوضين فى الميناء يتراسلون باسم « الديوان » مع بعض الامراء المسيحيين خاصة منهم ملك انجلترا شارل الاول و « الولايات العامة » فى لاهاى وأمراء اقليم « أورانج » (الذى لم يلتحق بفرنسا الا عام 1673 م / 1084) وكانت الغاية هى الحصول على العتاد الحربى من هذه الدول بعد مفاوضات معها على قدم المساواة وقد أبرموا معها اتفاقيات ومعاهدات على يد سفراء أمثال محمد بن عبد القادر برفوق وابراهيم بن شعيب بركاش وبعض أعضاء الديوان وقد أثبت (كاييى) فى (تاريخ الرباط) (ص 230) نقلا عن وثائق فرنسية ـ كثيرا من هذه

المعاهدات التى امضيت مع انجلترا وفرنسا شاركت مدينة سلا فى بعضها وحتى فى فترة خضوع الديوان للدلائيين كان أعضاؤه يتدخلون لمناقشة كل اتفاق مع الدول الاوربية اللهم الا فى عهد عبد الله بن محمد الحاج الدلائى الذى كان يوقع هو أو ممثله الحاج الجنوى قائد العدوتين وذلك خلال نحو عشرين سنة من عام 1051 هـ / 1641 م الى عام 1070 هـ / 1659 م .

وقد لفت نظرنا من بين المستوردات الفرنسية عام 1065 هـ / 1654 م التبغ والبارود على أن بعض المناطق الاوربية خاصة جنوة وبيزة كانت تمد القرصان الاعلاج المرابطين بأبى رقراق وتقتنى منهم المواد والسلع المقتنصة وحاولت دول أخرى تأسيس مراكز تجارية على ضفاف أبى رقراق حيث أقامت انجلترا عام 1048 هـ / 1638م بمرسوم ملكها شارل الاول (21) (شركة بربارية
(Barbary Company
للقيام رسميا بصفقاتها فى كل من الرباط وسلا بالاضافة الى مراسى المغرب الاخرى وكانت العدوتان تعجان

---

(21) رسائل البراءة الصادرة عن شارل الاول (راجع كايي ص 236) .

آنذاك بالتجار الانجليز والفرنسيين والهولنديين وغيرهم مما فسح المجال لتعيين قناصلة أوربيين مثل (هنرى برات) (Henri Prat) الفرنسى (1058 هـ / 1648 م) وقبله القنصل الهولندى بيستر فيلت (Juriaen Van Bystervelt) 1045 هـ / 1635 م) الذى كان يقطن بالقصبة ولكن انجلترا لم يكن لها قنصل بالمنطقة رغم علاقاتها القديمة بالاندلسيين وقد ورد قبيل ذلك فى مذكرة مؤرخة بـ 1631 م / 1041 هـ (دوكاستر ـ س . أ . ـ السعديون ج 3 ص 358) أن لرباط أجمل وأمتع مدينة فى ساحل افريقية جودة أرض وعذوبة مياه ولعل فى ذلك كثيرا من الايغال لأن صاحب المذكرة ينص على أن قراصنة سلا اقتنصوا فى ظرف عشرة أعوام أزيد من ألف سفينة مسيحية . وكان مصب أبى رقراق قد أصبح منذ عام 1023 هـ / 1614 م المرسى الاسلامية الاطلنطية الاقرب الى أوربا رغم كون حاجزها الرملى (barre) الذى أشار اليه صاحب الاستبصار (ص 53) كان يعوق بعض الشىء دخول المراكب اليها غير أن هذا المصب اتسع تحت تأثير الزلزال الذى وقع فى لشبونة عام 1169 هـ / 1755 م بعد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة فأصبح فى وسع السفن الكبرى التى تزيد حمولتها على مائة وخمسين طنا الدخول الى

الميناء (22) . والواقع أن الاندلسيين أقاموا معالم مدينة جديدة داخل نطاق رباط الفتح حيث شيدوا سورا قلصوا به حاضرة المنصور الموحدى يمتد من النهر (برج سيدى مخلوف) الى باب الحد أو الاحد قاطعا السور الموحدى جنوبا ويظهر أن مساحة المدينة فى حدودها الجديدة بادراج حى لعلو (23) والقصبة ـ لم تصل الى مائة هكتار أى ما ينيف بقليل على ربع المساحة الموحدية ويذكرنا التصميم الاندلسى لهذه الرقعة الحديثة من رباط الفتح بالتخطيطات المعمارية الرتيبة المعروفة فى أوربا أو الولايات المتحدة الامريكية حيث أقيمت أربع شوارع أساسية من الشمال الى الجنوب يقطعها عرضا شارعان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(22) اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب ـ ماكسانج ص 71 / وصف تاريخ المغرب ج 1 ص 156 / دوكاستر ـ السعديون السلسلة الاولى م. 2 ص 265 ـ م. 3 ص 332 .

(23) كان يسمى جبل الزعفران والواقع انه جبل العرض بفاس السلوة ج 3 ص 149 ، ويرى الاستاذ عبد الله الجراري (من أعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 1103) .

(24) انه هو مقبرة لعلو حيث دفن ابو سالم بن ابى الحسن المرينى المتوفى عام 762 هـ / 1360 م فى حين ان مدفنه بالقلة بفاس (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 361 (خ)) (راجع روضة النسرين لابن الاحمر ـ المطبعة الملكية بالرباط)

اثنان لتحديد الحارات والاحياء وقد نوه جان ارمان مصطفى فى رحلته (Relation de Jean Armand Mustapha) بهذه الهندسة الرصينة وأسست فى فترة الاندلسيين هذه كثير من المبانـــى الاستراتيجية كبرج القراعنة الذى تنحدر درجه من القصبة الى الوادى معززا بست وسبعين مدفعا جلها من الحجم الكبير مع حامية قدر عـدد رجالهـا عـام 1032 هـ / 1622 م بألـف وخمسمائة من بينهم رماة مهرة . أما المدينة فقد سكنتها أسر أندلسية مثل آل بركاش وكراكسو وبالافريج وبيرو وطريدانو ولوبريس وغيرها من العائلات العريقة التى قابلها فى سلا أسر عريقة أخرى مثل آل فنيـش واذا كان المؤرخون يـرون أن (الهورنشيروس) سكان القصبة كانوا من الاندلسيين الاوائل الذين فروا بدينهم الى المغرب فان من جاء بعدهم خلال فترات متعاقبة ــ لاسيما بعد النفى العام ــ لم يكونوا كلهم من ذوى الايمان الوطيد ولعل بعضهم احتفظ بالحنين الى (الفردوس المفقود) غير أن النزاع المسلح الذى استعـر بيـنهم وبين اخوانهم من سكان سلا والقصبة وسم هؤلاء الطارئين بميسم خاص حدا أهل سلا الى تسميتهم بـ : « مسيحيى قشتالة » وقد عزز (جوهن هاريسن) الانجليـزى هـذا الرأى (24)

(24) مسيحيو المغرب دوكاستر ــ الوثائق ــ السلسلة الاولى م. 3 ص97.

وكذلك بعثة (الكابوسين) المسيحيـــة (25) وحتى اذا صحت هذه الاطروحة فان تفسيرها يكمن فيما اتصف به سكان الرباط آنذاك من الشيم الحضارية التى جعلت البعض منهم غرباء فى المنطقة لاسيما وأن سكان سلا كانوا آنذاك من الفريق الذى عرف فى الاندلس بنشاطه الفياض فى دعم الازدهار الزراعـــى فى اسبانيا فى حين كان أندلسيو الرباط من الحضريين الذيـــن وسموا بنوع من « الميع الارستقراطى » صيرهم أقرب مظهرا الى المسيحيين الاسبان وأعلـــق بهـــم فى سلوكهم وعاداتهم وطموحاتهم ! وما لبثت هذه الفوارق أن انمحت منذ أوائـــل العصر العلوى حيث اندمج الفريقان فى المجتمع المغربى مـــع استمرار « أسطورة الصراع » بين العدوتين الى عهود متأخرة.

* * *

وقد انبرى المولى الرشيد لتحرير المغـــرب من الامارات المستقلة التى سيطر عليها كروم الحاج والدلائى والعياشـــــى والخضر غيلان وعبد الله اعراس وكان عـــرب الاودايـــة من الفئات الاولى التى شكلت جيشا نظاميا فتيا ما لبـــث المولى اسماعيل ان عززه بالعبيد الذين وضع نظاما رصينا لتكوينهم

---

(25) Histoire de la mission des P.P. Capucins du Maroc, p. 341

فى (مشرع الرملة) وهو معسكر لتدريب الجند الفتيان غير بعيد عن أبى رقراق (بين سلا ومكناس) وكان هذا المعسكر يضم نحو مائة وخمسين ألفا من الشباب كانوا سند السلطان فى طرد الاسبان من المعمورة (عام 1092 هـ / 1681 م) والعرائش (1101 هـ / 1689 م) وأصيلا (عام 1104 / 1692 م) وتحرير طنجة عام 1096 هـ / 1684 م) من قبضة الانجليز مما أثار تضايق أوربا وانزواء السلطان موقتا عنها لانكبابه على تحصين الثغور والمواقع الاستراتيجية حيث أتام أربعة وسبعين حصنا فى طول البلاد وعرضها وجهزها بالحاميات القوية كما قام ـ على غرار قصر فيرساى (Versailles) « مدينة الرياض » بعاصمته الجديدة مكناس تضم سورا عتيدا طوله أربعون كيلو متر يضم الحدائق والقصور والقباب والاهراء ومخازن العتاد !

وبعد خلل عابر وسم عهد المولى عبد الله عاد نجله السلطان سيدى محمد فواصل سياسة جده بتنظيم الجيش واقامة أبراج وتحصينات فى معظم مراسى المغرب وتكوين أسطول طرد به البرتغاليين من الجديدة عام 1183 هـ /

1769 م وبناء الصويرة كمركز تجارى نموذجى متفتح نحو المحيط وقد عرف المولى سليمان كيف يحفظ هذا التراث بسياسة لبقة تحاشى فيها الخنوع لأوربا رغم تهديدات نابليون ودول مسيحية غير أن وجود فرنسا بالجزائر شكل منفذا للاستعمار قاسى المولى عبد الرحمن الأمرين فى مدافعته وكان من آثار وقعة ايسلى (1260 هـ 1844 م) وحرب تطوان (1277 هـ / 1860 م) الفل من شوكة المغرب على الصعيد الدولى حيث بدأ عهد المولى الحسن الاول بسياسة « تدافع » حرص ملوكنا بفضلها على حفظ االتوازن الدياسى الخارجى للبلاد بالرغم عن تكتل أوربا ضد المغرب وبروز معالم الاستعمار الجديد الذى أدى مع فجر القرن العشرين الى وضع لبنات الحماية فى اتفاقات سرية لتوزيع الشمال الافريقى بشقيه الشرقى والغربى ، وأمست العدوتان طوال هذه الثلاثمائة سنة فى ظلال الملوك العلويين حاضرتين بارزتين من حواضر المغرب المزدهرة بقائديهما الاثنين مع ثالث يشرف على الميناء تحت المراقبة الصارمة للسلطة المركزية ولعل القنوات التى مدها العلويون لنقل ماء غولة الى الرباط قد وضعت على القنوات الموحدية حسبما لاحظ الاستاذ

باسى (26) خلال التنقيبات المحققة عام 1922 حيث برزت بقايا القناة القديمة خارج مداخل سور المدينة قرب باب شالة من حيث تنعرج قبالة الجامع الاعظم لتتجه الى قصبة الاوداية ولعل الاستاذ باسى لم يلاحظ أن هذه القناة تمر بالزاوية التجانية قرب « زنقة القناصل » حيث مدت قناة فرعية باذن من جلالة السلطان الحسن الاول ، وكانت قناة الموحدين قد تعرضت الى أخطار حوالى منتصف القرن السابع الهجرى أثناء حروب استعرت بين الموحدين وبنى مرين غير أنها استصلحت سنة 684 هـ / 1285 م على يد السلطان ابى يوسف المرينى (27).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد عرفت الرباط وسلا تواد لامعين أمثال احمد بن حدو وعبد القادر مرينو والاميرال عبد الله بن عائشة كان لهم ثقل فى ميزان العلاقات مع أوربا وظلت قرصنة الاعلاج فى العهدين الرشيدى والاسماعيلى موصولة انطلاقا من ضفاف أبى رقراق دون أى اسهام من سكان العدوتين غير أن الاسطول النظامى ما لبث أن تعزز فى عهد السلطان سيدى محمد بن

(26) Un aqueduc Almohade à Rabat, in Revue Africaine, 1923 (3è et 4è trim. p. 523).

(27) ليون الافريقي ج 2 ص 184 .

عبد الله بخمسين قطعة يشرف فيها ستون ضابطا على خمسة آلاف من البحارة وألفين اثنين من الرماة وعادت دار الصناعة فى سلا الى نشاطها المرينى بالاضافة الى أوراش الرباط قبالة جامع حسان على الضفة الجنوبية للوادى تزج فى المحيط بسفن جهز بعضها بخمسة وأربعين مدفعا .

واذا كان سكان العدوتين قد انصرفوا بالكلية عن القرصنة فان تجارتهم مع أوربا ازدهرت حيث أصبح ميناء أبى رقراق أنشط مراسى المغرب مع مرسى مرتيل بتطوان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكانت روح المهادنة تذكى ملوكنا فى تشجيعهم للتبادل الهادىء الوديع حتى بواسطة تجـار اجانب يقيمون بمختلف الموانى غير أن روح التسامح ما لبثـت أن انقلبت الى لوازم معكوسة تحت تأثير سياسة الحيف والاستغلال التى كانـت تنهجها دول أوربية ضد المغرب وهكذا فعندما حاصر الانجليز مصب أبى رقراق عام 1096 هـ / 1684 م لم يسع السلطان الا أن يصدر أوامره لطرد جميع التجار الاجانب من مراسى المغرب وحاول المولى اسماعيل أن يمد اليد الى ملك فرنسـا لويس الرابع عشر لتبادل الاسرى ومحو بواعث الخلـل

والاضطراب غير أن فرنسا كانت متشبثة بالحفاظ على الاسرى المغاربة لضمان سير مراكبها الشراعية .

وكانت قصبة الاوداية قد احتفظت بقيمتها الاستراتيجية مما حدا المولى الرشيد الى بناء سور حديقة الاوداية و « القشلة » (هى سجن لعلو الحالى) التى عززها بثلاثين مدفعا تتجه فوهاتها باستمرار الى المحيط فى رقابة موصولة صارمة !

وقد انصبت آثار الهدوء والامن والنظام التى عرفتها العدوتان لأول مرة على مختلف مظاهر العمران فارتفع عدد السكان من نحو أربعة آلاف نسمة فى عهد بنى وطاس الى نحو عشرين ألفا .

واذا استثنينا فترات الاضطراب العابرة أيام المستضىء فان السلطان سيدى محمد بن عبد الله ـ ايقانا منه ببواعث الفوضى ـ قد طرد الاوداية من القصبة وشتتهم فى المدينة التى اندرجت فى التنظيمات الادارية والعسكرية الجديدة وقد جهز السلطان حامية الرباط بستين مهراسا ومائتى مدفع بتاقى طبجية الرباط (أى

المدفعجيون) وعددهم آنذاك ألفان تدريبا بقيادة الحاج سليمان التركى وكانت هذه الحامية أقوى الحاميات فى حواضر المغرب اذ عهد السلطان عام 1172 هـ / 1758 م الى والى المدينة (على مرسيل) بتشييد برج جديد هو (الصقالة) التى شارك فى بنائها علج انجليزى بالاضافة الى بطاريات للحيلولة دون نزول قوات بحرية أجنبية جنوب غربى القصبة خاصة فى (برج الصراط) والمنارة الجديدة بها .

وقد بذل السلطان جهودا لايقاف القرصنة كما شجع تطور الصناعة والتجارة فى العدوتين واختصت الواردات بالجوخ والتطنيات بينما حوت الصادرات الجلد والصمغ والنحاس ثم الصوف الذى وصفه مؤرخون غربيون بأنه صنف رقيق وأجمل من الصوف الاسبانى وكذلك التبغ الورقى الذى كان أجود من تبغ ولاية (فيرجينيا) الامريكية ومنذ العهد الاسماعيلى أصبحت أربعون الى خمسين سفينة انجليزية تزور مرسى أبى رقراق سنويا وقد تأسست دار تجارية دنماركية عام 1171 هـ / 1757 م بالرباط حيث نقل السلطان قنصلية الدنمارك من أسفى واستأجرت « شركة افريكانس » (Afrikanse Compagnie) مداخيل ديوانة العدوتين عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1174 هـ / 1760 م بخمسين ألف دوكا وان كان نشـــاط هذا الميناء قد تقلص بعد تأسيس مرسى الصويرة رغم بقاء الكثير من التجار والقناصلة الاوربيين فى الرباط ايمانا منهم بأن هذا المركز أنسب لتجارة الساحل (28) .

وعندما اعتلى محمد الثالث العرش كانت مدينة الرباط محصورة داخل السور الاندلسى فأقام لها حامية من العبيـــد وشيد فى أكدال والاوداية فى القصبة (والاوبـــيرا) مظاهـــر عمرانية جديدة يتوسطها قصر مع مسجدين هما (جامـــــع السنة) ومسجد (أهل فاس) فى المشور بالاضافة الى أربعة مساجد أخرى فأضفى بذلك على (رباط الفتح) طابعا فخما كحاضرة ملكيـــة .

وعندما اعتزم سيدى محمد بن عبد الله اقامة اكـــدال داخل المدينة الموحدية لاحظ أن أراضى المخزن قد سطا عليها بعض أثرياء المدينة وأحالوها الى جنـــان وعرصات فاستصدر عام 1187 هـ / 1773 م فتوى من العلماء بطردهم منها (29).

(28) Chénier, Recherches historiques sur les Maures et Histoires de l'Empire du Maroc, vol. 3, p. 26.

(29) تاريـــخ الربـــاط للضعيـــف ص 184 (خ) .

وكانت مدينة الرباط تضم بين جنباتها أزيد من خمسين مسجدا وزاوية فى أوائل هذا القرن ، وقد أسس معظمها فى العهد العلوى أهمها جامع السنة الذى أكد الضعيف، ان بناءه تم فى جمادى 1199 هـ (مارس 1785 م) على يد الملك الهمام محمد بن عبد الله الذى أنفق عليه أموالا طائلة ، ويظهر أنه ظل منذ تأسيسه نحوا من عشرين سنة خاليا لبعده عن المدينة وقلة السكان حوله ، وقد قام السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بتجديد بناء هذا الجامع الذى أصبحت الصلوات الخمس تقام فيه بانتظام مع خطب الجمعة وذلك بعدما بادر الى زيادة تعمير حى تواركة بعبيد البخارى واهل سوس ثم اقامة دار المخزن والمشور السعيد ولم تزد الترميمات الجديدة على دعم صحون الصلاة بروافد خارجية دون تعديل التخطيط الاصلى للجامع مع اضافة جناح وباب جديدين خلف المقصورة وربما ايضا دار للوضوء قرب الصومعة ومخدع مستطيل وراء المحراب يرجع تاريخه الى عهد السلطان مولاى عبد العزيز (1325 – 1907) ، وأول ما يبده الزائر لجامع السنة مساحته الشاسعة وتناسق اجزائه وبساطته ، واذا اعتبرنا تخطيطه الاصلى فان المساحة تكون عبارة عن مربع كامل (74ر70 م فى 74ر50 م) أى 5565 متر مربع ، وهذا

الجامع من أكبر مساجد المغرب ولا يفوقه فى الضخامة عدا جامع حسان (25 523 متر مربع) وجامع القرويين (6300 متر مربع) .

وقد قامت وزارة الاوتاف والشؤون الاسلامية ـ بأمر من جلالة الحسن الثانى ايده الله ـ بتجديد هيكل جامع السنة فنقلت عام (1969) منارته من الطرف الشمالى الى الطرف الجنوبى للمسجد ، وكان ذلك عنوانا ناصعا عن امتداد روعة الفن المغربى الاندلسى بطابعه الخاص الذى اندرست معالمه فى الوطن العربى كما تجددت سقوف الصحون والبلاطات وازدانت مختلف الاروقة بنقوش خلابة وبرزت براعة الصانع المغربى فى النحت على النحاس الاصفر اللماع الذى لبست به أبواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير فى تاريخ الفن بالمغرب فكانت هذه المظاهر وكثير من اشباهها فى اجزاء هذا التجديد صورا حية لعمق المكاسب الاندلسية والشرقية الاسلامية فى حضارتنا الحديثة التى تضم الى رواء الجمال العصرى جلال الفن التقليدى ، وقد أصبحت الصومعة الجديدة شامخة فى هيكلها الضخم يراها الناظر وقد أطلت فى سمت هندسى محكم على اكبر شارع فى العاصمة وهو شارع محمد الخامس رمز

النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضارى والاسلامى الجديد فى المغرب العربى .

وهكذا بدأت (حاضرة الاندلسيين) تزدهر فكان من مظاهر أناقتها النسبية ، أزقتها المبلطة كما وصفها رحالون غربيون خاصة منها « زنقة القناصل » مقر ممثلى الدول الاوربية الا أنها ظلت مع ذلك من الوجهة الاقتصادية (رغم توفر مصنع للانسجة القطنية بها) أقل نشاطا من كثير من المدن الاخرى مثل سلا ومراكش وفاس ومكناس وتطوان كما يتجلى ذلك من مقارنة المكوس والضرائب بهذه الحواضر وهذا بالرغم عن اقفال مرسى أنفا ونقل تجارها الى الرباط بأمر من السلطان المولى سليمان الذى اتخذ منها منطلقا لمحاربة القبائل المتمردة ومقرا لخليفته المولى هشام فى حين وسع الحاضرة الاندلسية عام 1222 هـ / 1807 م بنقل اليهود من حى (البحيرة) الى ملاح جديد بحارة (وقاصة)اقتنى أرضه من ماله الخاص وحبسه على اليهود بعد أن جهزه بمختلف مرافق العمران وهذا مظهر من عناية ملوكنا بهذه الجالية من المواطنين الذين أراد السلطان أن يوفر لهم السكن المريح فى مكان اخضرت رحابه بالجنان والعرصات

الا أن اقتصاد المنطقة ازداد تقلصا من جراء استفحال المجاذبات الدولية بسبب (حروب نابليون) التى حالت دون وصول السفن الأوربية الى سواحل المغرب وكان الاسطول المغربى فى هذه الآونة مجهزا بنحو عشرين قطعة اضطر السلطان لأسباب شتى الى نزع سلاحها تقليصا للصراع البحرى مع أوربا والواقع أن العهد السليمانى شكل فترة هادئة فى تاريخ المغرب أقام السلطان خلالها قصر (القبيبات) المعروف : بـ «دار البحر» مع بضعة مساجد ولعل من مجالى هذه الدعة النسبية ارتفاع عدد سكان الرباط الى ما بين 25.000 (30) و 30.000 (31) نسمة الا أن هذا الهدوء ما لبث أن تخللته اضطرابات تزايدت خطورتها فى عهد المولى عبد الرحمن بما كان يثيره أهل (زعير) بأرباض الرباط حيث عاثوا فسادا فى نفس الوقت الذى كان (بنو عامر) يقضون مضاجع أهل سلا بعيثهم ولعل ذلك هو الذى حدا السلطان عام 1249 هـ / 1833 م الى تعبئة أهل سوس من جيش الاوداية وتركيزهم فى القصبة التى لا تزال تحمل

---

(30) حسب Grey Jackson فى كتابه :
An account of the empire of Marocco, Londres, 1809, p. 87.

(31) حسب Broussonnet فى كتابه :
Magasin encyclopédique ou Journal des sciences, p. 103.

اسمهم الى الآن مع اقطاعهم أراضى بين الرباط وتمارة وكان للعبيد آنذاك قد اندرسوا تقريبا الا أن بطاريات الرباط أصبح لها وزن تخشى مغبته قطع فرنسية هاجمت مصب أبى رقراق عام 1268 هـ / 1851 م قاصدة قنبلة سلا الذأر منها بسبب هجوم مراكبها على سفينة فرنسية وتلقت الرباط آنذاك انذارا بعدم التدخل ولكن مدافع القصبة لم تكن لتتأخر عن نجدة اخوتها بالعدوة الشمالية التى أبلت البلاء الحسن مما اضطر الاسطول الفرنسى الى الاقلاع فى نفس الليلة وكانت انجلترا تلعب وراء الستار ضد فرنسا دعما لتجارتها التى بلغت حصة الاسد فى العدوتين حيث تكدست واردات من القطنيات والحرائر والصوفيات والفولاذ والنحاس والحديد والسكر والشاى ارتفعت قيمتها من مائة ألف فرنك عام 1266 هـ / 1849 م الى 4.158.465 ف (قيمة الصادرات منها 1.863.515 فرنك) عام 1274 هـ / 1857 م وكان جبل طارق آنذاك هو المستودع التجارى الذى يمد الرباط وقد دخلت فى نفس السنة الى الميناء ست وثمانون سفينة مجموع حمولتها 6.684 طنا أربعون منها فرنسية واحدى وعشرون برتغالية وثمان عشرة انجليزية وسبع اسبانية والسبب فى هذا التطور هو معاهدة 1844 م التى شلت يد المغرب سياسيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفتحت بابه فى وجه أوربا مما أسفر عن نمو المبادلات معها حيث أمست الرباط مهبطا لرواد افريقيا من الرحالين الذين بدأوا يمهدون لغزو الغربيين ولكن السلطان الذى كان يعى أبعاد هذا الخطر أبى الا أن يعزز الثغور فأقام مخيما لنخبة الرماة فى اطار الجيش النظامى شاركوا فى معركة تلمسان عام 1246 هـ / 1830 م والواقع ان الرباط كانت لها جاذبية فكانت تلفت الانظار لدورها وقصورها الفخمة وحدائقها الغناء التى وصف روعتها كثير من الرحالين (32) وكان واليها وجابى جمركها ورئيس مرساها وناظر أحباسها يتجمعون فى ادارة واحدة قرب حى القناصل ويظهر أن سكان العدوتين فى هذه الفترة بلغ ستين ألف نسمة (33) وهو عدد لا يبدو باهظا اذا اعتبرنا أن الرباط أصبحت « حاضرة تجارية كبرى » ـ كما يقول القس كودار (34) وأمست هى وسلا معا « مركزا اقتصاديا من الدرجة الاولى » . كما يقول نائب القنصل الفرنسى (35) لاتجاريهما من مدن المغرب سوى حاضرة فاس

---

(32) Cotte (Narcisse), le Maroc contemporain, Paris, 1860, p. 52.

(33) Beaumier, le Choléra au Maroc, sa marche jusqu'au Sénégal en 1868, Paris, 1872, p. 9.

(34) Godard (abbé), le Maroc, notes d'un voyageur (1858-1859), Alger, 1859, p. 49.

(35) Caillé, p. 349.

وكان اقرار الامن بها محط عناية السلطة المركزية وقد ضرب محمد الرابع أروع مثل فى البطولة والتضحيـــة عندمـــا هـــب شخصيا عام 1287 / 1870 م صحبة أحد أبنائه للاقتصاص من عصابات (زعير) التى أقضت مضاجع شعب وديـــع كان البطل المغوار يحس بأنه مؤتمن على راحته وطمأنينته وأصبح الدور الاساسى لجيش الاوداية معززا بأهل السوس (وهم توارقة الحاليون) هو الوقوف فى وجـــه العابثـــين من هـــؤلاء وغيرهم وقد تكونت منهم منذ عام 1299 هـ / 1881 م ثلاث سرايا تدربها بعثة عسكرية فرنسية تلاهـــا بعد سبع سنوات اقامة بطارية عصرية على الساحل على بعد أقل من كيلو متـــر واحد من القصبـــة باشراف المهندس الالمـــانى (روتنبورغ) (Rottenburg) وبذلك أصبحت (العدوتان) أكثـــر حصانة (36) بعد مدينة طنجة من كل الحواضر نظرا لتوفـــر مائـــة وأربعة وستين مدفعا من بينها ثلاثون من عيار اثنى عشر مع تعبئة ستة وأربعين طبجيا أو مدفعيا لحراسة الشاطىء ومراقبة كل الحركات المشبوهة فى عرض البحر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(36) (المغرب المعاصر امبراطورية تنهار ص 259) .

وهكذا بدأت حاضرة الرباط منذ محمد الرابع ونجله الحسن الاول تسير بخطى حثيثة نحو مركزها كعاصمة حيث أصبح السلطان يحتفل بأيام العيد فى أبهة وفخار أمام وفود تنحدر من مجموع أنحاء المغرب وتزايد حذر الشعب بعد حرب تطوان وما عقبها من ويلات فكان السكان فى تربص مستمر يترقبون الطوارىء وبدأت الاعصاب تتوتر لأقل تدخل أجنبى لان الشعب بدأ يحس بالدسائس التى تحاك فى الخفاء فتبرق من رمادها بين الفينة والاخرى شرارة مزعجة وكان سكان الرباط خاصة يكدسون السلاح توقعا للشر وكذلك فعلوا عندما شب نزاع بين المغرب وانجلترا عام 1307 هـ / 1889 م بصدد وضع أول حبل تلغرافى بطنجة فاحتاط المخزن واستنفر عسكره فى النقط الحساسة من السواحل ، ومع ذلك ظل التبادل التجارى موصولا مع أوربا وخاصة فرنسا وانجلترا ودخل فى نفس العام عنصر جديد فى واردات أبى رقراق هو (البترول) كعنوان على اتجاه المغرب نحو التطور وتضاعف عدد البواخر الراسية فى ميناء الرباط أزيد من ثلاث مرات (102 بدل 31) فى ظرف ربع قرن (أى بين 1282 هـ / 1865 م) و 1309 هـ / 1891 م) لاسيما بعد أن ظهر فى المسرح الايطاليون وكذلك الالمان بشركتهم (أطلس) منذ

1308 هـ / 1890 م لربط مرسى (هامبورغ) بمراسى المحيط وكانت شركة (باكى) (Paquet) تنقل المسافرين بين (مرسيليا) والرباط منذ عشرين سنة خلت لذلك العهد وما ان اعتلى الحسن الاول العرش حتى كان حى القناصل بالرباط يضم ممثلى تسع دول (هى فرنسا وانجلترا والبرتغال وايطاليا والنمسا ـ هنغارية والولايات المتحدة الامريكية وألمانيا وهولندا) يسهرون على مصالح مواطنيهم بينما ظل المفوضون فى طنجة العاصمة الدبلوماسية وعرفت الرباط فى نفس الوقت مكتبا بريديا أسسه الانجليز عقبه تأسيس مكاتب أخرى بعد بضع سنوات حيث صدر ظهير شريف عام 1310 هـ / 1892 م لتنظيم دواويين المخزن البريدية فى خطوط ثمانية كانت الرباط مقرها المركزى وكانت حاضرة المنصور قد ازدانت منذ بداية عهد محمد الرابع ببروز معالم القصر الملكى العامر احتفل به عام 1281 هـ / 1864 م علماء العدوتين فى مهرجان فاخر داخل رحاب المشور فكان ذلك بالنسبة للرباط فاتحة عهد جديد ! !

ولم تستكن (العدوتان) مع ذلك الى هذا العمران الحضارى العارم لان بداية القرن العشرين كانت منطلقا

لدسائس استعمارية تبلورت فى اتفاقات سرية عام 1322 هـ / 1904 م واجهها السلطان المولى عبد العزيز بحزم فى مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1324 هـ / 1906 م وكان المغرب قد أعد نفسه للدخول فى معمعة الديموقراطية ضمن الماكينة الدستورية منذ أن أصدر السلطان مولاى عبد الحفيظ عام 1326 هـ / 1908 م مشروع دستوره فى اطار النهضة العامة التى بدأت معالمها تظهر فى آفاق العالم العربى والاسلامى ولكن تكتل الاستعمار الغربى حال دون هذا التطور الطبيعى للمغرب الناشىء الذى ما عرف فى حياته طوال أزيد من ألف سنة أى نوع من السيطرة الاستعمارية الى أن فرضت عليه الحماية الفرنسية عام 1912 م ولكن الاربعين سنة التى قضاها المغرب مقيدا فى نطاق مفتعل كان مناسبة التحم فيها العرش والشعب فى صراع مسلح موصول لم يتوقف الا بعد 1934 ليخلفه كفاح سياسى قاده جلالة المرحوم محمد الخامس وولى عهده آنذاك جلالة الحسن الثانى منذ عام 1944 كلل بثورة الملك والشعب وبزوغ عهد الاستقلال المنتزع عام 1955 وكانت (الرباط) فى هذه الفترات كلها منطلقا للتلاحم ومسرحا للكفاح فى ظلال العرش .

الربـاط **عبد العزيز بنعبد الله**